

صورة المثقف العربي في ذهنية الواقع قراءة في سوسيولوجيا الواقع المقهور^(*)

أفراح جاسم محمد

أستاذة علم الاجتماع، الجامعة المستنصرية - العراق.

مقدمة

انطلاقاً من تصوّر له شكل البداية عرفت الثقافة العربية في العقود الأخيرة سؤالاً نمطياً: ما هو دور المثقف اليوم، الذي يوكل إليه دور المرشد والدليل؟ بيد أن السؤال: هل لعب المثقف دوره المطلوب في المجتمع؟

يعيش المجتمع العربي اليوم في حالة انتظار الدور الجوهري من المثقف القائم على رفده بكل ما يؤمن تطوره وتقدمه، على أن لا يغفل المعوقات التي تقف بوجه المثقف، فهي كثيرة ولكثرتها ربما قد آل الأمر إلى نشوء شرائح تأقلمت وتكيّفت على نمط لا يليق بمن يسمّى مثقفاً.

ولأن مسيرة العمل الثقافي والاجتماعي تتأثر سلباً وإيجاباً بالصورة الفعلية التي تظهر فيها هذه النخب، فإنه يتحتم علينا التأمل في تلك الصورة وتسجيل الملاحظات المناسبة عليها. والمثقف هو فصيل من تلك النخب الفاعلة ولا يصح تناسيه أو التغافل عنه، وإن كان قد يغفل هو عن نفسه أحياناً، فيجب مراجعة شؤونه الفكرية والاجتماعية وحتى النفسية، لأنه نافذة واسعة تطلّ على المجتمع، فيمكن عبره إصلاح كثير من الأخطاء والاشتباهات الاجتماعية؛ وهو الطموح المطلوب، كما يمكن عبره اختراق المجتمع وبث الأسس الثقافية فيه. وقد جاءت هذه المحاولة في هذا السياق ولكن لا تستوعب كل شؤون المثقف، وإنما لتثير استفسامات على بعض ما يشيع في دائرتي (المجتمع والسلطة) لا غير.

أولاً: ماهية المثقف

بدايةً إن لفظ مثقف (Intellectual) الذي يتم استخدامه في العربية المعاصرة لا يمكن العثور عليه في الأدبيات العربية القديمة. إذ إن تأريخ استعمال أو على الأقل انتشار هذه

المقولة في الخطاب العربي قد لا يتجاوز نصف قرن من الزمان وهي بصيغتها المعاصرة «المثقفون» كلمة مؤلدة، إذ هي ترجمة للكلمة الفرنسية (Intellectuel) التي لا يرجع تأريخ استعمالها كاسم إلى أكثر من قرن، في اللغة الإنكليزية يرقى استعمال هذه الكلمة إلى القرن السابع عشر، ولكن حمولتها الراهنة إنما تجد مرجعيتها في الفكر الفرنسي خاصة، فلفظ (Intellect) الذي معناه العقل أو الفكر، وبالتالي فهو يدل عندما يستعمل وصفاً لشيء على انتماء أو ارتباط هذا الشيء بالعقل كملكة للمعرفة (مثل قولنا نشاط عقلي أو فكري) أو بالروح، وفي مقابل المادة (كقولنا الحياة الروحية)، أما عندما يستعمل اسماً، فهو يحيل إلى الشخص الذي لديه ميل قوي إلى شؤون الفكر أو إلى شؤون الروح، الشخص الذي تطغى لديه الحياة الروحية أو الفكرية على غيرها، ومن هنا عبارة «العمال الفكريون» في مقابل «العمال اليدويون» (Oxford Word Power Dictionary, 2006: 415).

هذا في اللغة الفرنسية، أما اللفظ العربي «مثقف» الذي وضع ترجمة لـ (Intellectuel) فهو لا يحيل إلى الفكر أو الروح بل إلى لفظ الثقافة الذي هو ترجمة لكلمة (Culture) الفرنسية التي تقول في معناها الحقيقي الأصلي على (فلاحة الأرض) (الجابري، ٢٠٠٠: ٢١).

ومن هنا ممكن أن نلاحظ اختلافات الرؤيا التعريفية لمفهوم المثقف بين كل الثقافات المتنوعة، التي، كلاً منها، تحدد له كياناً خاصاً به وفق ما يتلاءم وأسسها المنهجية. أما في معناها المجازي فنقول على الثقافة « ذلك الكل المعقد الذي يضم كلاً من الأخلاق والفنون والقانون والعادات وكل المواد المموسة التي ينظم بها المجتمع» (Kottak, 2006: 63). وعرفت أيضاً على أنها مجموعة من الأفكار والعادات والقيم والسلوك، إضافة إلى كل المصنوعات التي يستخدمها ويمارس بها الأفراد كل أعمالهم في المجتمع (Bruc and Yearley, 2006: 58).

فمفهوم المثقف اشتق من الثقافة بما تحويه، أي من يحمل مضمون هذه الثقافة برموزها ومعطياتها. والمثقف بهذا المعنى سيكون هو من اكتسب بالتدريب والتعلم جملة من المعارف التي تنمي فيه هذه الملكة، وحتى يصبح مثقفاً بمعنى الكلمة يجب عليه أن يفرغ ما في جعبته من خزين ثقافي ومعرفي ممكن أن ينفع به المجتمع ويصل به إلى برّ الأمان، وتصدّر لوائح الدول المتقدمة والمتطورة.

وهذا المعنى لا يتطابق مع مفهوم (Intellectue) الذي يدل كما ذكرنا على الشخص الذي يمتن العمل الفكري، هذا من جهة ومن جهة أخرى لا بدّ من الإشارة إلى أن لفظ «مثقف» في اللغة العربية المعاصرة وهو مؤلّد لا نكاد نعثر له على أثر في الخطاب العربي القديم. جاء في لسان العرب «ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفة، ورجل ثقف وثقف حاذق وفهم»، ولم يرد فيه لفظ مثقف (ابن منظور، ١٩٩٩: ١١١ - ١١٢).

إذن مصطلح مثقف هو مصطلح حديث، حيث ترمز (Intellect) إلى العقل في تشكيله أو الفكر في بنائه ما يعبر عن الميل أو النزوع إلى الفكر، وبذلك يختلف المثقف في تفكيره ورؤيته عن ثقافة المجتمع المحيط (Culture)، فالمثقفون هم أولئك الذين يشتغلون بفكرهم في فرع من فروع المعرفة، ويحملون آراء خاصة بهم حول الإنسان والمجتمع، ويقفون موقف الاحتجاج والتنديد إزاء ما يتعرّض له الأفراد أو المجتمع من ظلم وعسف السلطات، سواء

كانت دينية أو سياسية (ضحية، ٢٠٠٦)، على أن يكون ذلك هو الدور الجوهرى المنتظر ممن يسمونهم مثقفين في جر المجتمع إلى نشدان الاستقامة التي تؤدي إلى سموه وارتفاعه.

فالحودود في الثقافة العربية غير واضحة بين المثقف الذي هو قارئ ومتتبع بالأساس، والمفكر أو المبدع، وغالباً ما يتم إدماج الجميع تحت صيغة واحدة هي صيغة المثقفين. فلو كشفنا عما يدور في أذهان العامة والمتخصصين حول وصفهم للمثقف لوجدنا أن المتخصص يختلف عن الفرد العادي في إعطاء صورة واضحة عما تعنيه كلمة مثقف. أما أصحاب التخصص فقد تكون لهم الصورة غير ضبابية نوعاً ما فهم يضعون النقاط على الحروف، ويميزون المثقف من غيره، على أن لا يعني ذلك أن جميع المتخصصين لهم رؤية واضحة لمفهوم المثقف، بحيث هم قادرون على إعطاء المعنى الحقيقي لمن يمكن أن يسمى مثقفاً أو عدمه، إذ قد تختلط الرؤى عند بعضهم فيدمجون بين عدة أصناف وجميعها يسمونها مثقفاً. لذلك برزت الكثير من التعريفات في عدد من الأدبيات تشير إلى المثقف، وسنورد بعضاً منها:

قال د. محمد عابد الجابري: «إن المثقف هو ناقد اجتماعي، إنه الشخص الذي همّه أن يحدّد ويحلّل ويعمل، من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية، إنه بذلك يصبح ضمير المجتمع، كما يقول: هم أولئك الذين يعرفون ويتكلمون ليقولوا ما يعرفون، وبالخصوص ليقوموا بالقيادة والتوجيه في عصر صار فيه الحكم فناً في القول قبل أن يكون شيئاً آخر» (الجابري، ٢٠٠٠: ٢٥)، ولربما هذا هو الدور المطلوب والمنتظر من المثقف، أما عدا ذلك فقد يجزّ الفرد إلى الخروج عن خانة المثقفين والانضواء تحت أصناف أخرى غير المثقف.

ويرى صلاح فضل: «أن المثقفين هم عادة جماعة صغيرة تتألف من أولئك الذين يهتمون مباشرة بإنتاج الأفكار عن طريق الابتكار والنقد والنقل وهم يشكلون من الفنانين المبدعين والفلاسفة والعلماء والمؤلفين المتخصصين في نظريات الأدب والاجتماع وعلوم الاتصال، ويلاحظ أن أفكارهم تمتد إلى نطاق أبعد من مجالاتهم المهنية، إذ يشتغلون بالأوضاع العامة للمجتمع ولا يقتصرون على الإنتاج الأدبي أو المعرفي الذي يعنون به» (فضل، ١٩٩٩: ٢٣)، وهنا يحصر الكاتب المثقفين في خانة العاملين بالفكر ومن المبدعين والفنانين، إلا أن ذلك ربما يشير إلى إمكانية فتح هذا التحديد فيضاف إليه أفراد من غير العاملين في المجال الإبداعي الفكري، ممن، يجوز أن نسميهم مثقفين.

د. هشام جعيط قال: «إن المثقف هو الذي يهتم بروح المجموعة أكثر مما يهتم بجسدها، أي بكل ما يتعلق بالفكر والثقافة والدين والفلسفة والسياسة، فثقافة المجتمع قد بنيت على أصول المعارف، ومن يحمل على الأقل أجزاء من هذه المعارف قد يساهم في إصلاح المجتمع، وعند ذلك ممكن أن يُنعت بالمثقف» (المستقبل العربي، ١٩٨١: ١٢٢)، حيث إن مسؤولية صلاح المجتمع تقع على عاتق المثقف الذي يفترض أن يكون دوره محورياً في التعامل مع المجتمع وفق الأسس الصحيحة.

أما برهان غليون فيبرز الطابع الديناميكي الجماعي للمثقف فيرى «أن المثقفين هم

تلك المجموعة من الناس التي تتميز من غيرها بأنها تجعل من التفكير في الواقع والسعي إلى المصلحة العامة أحد همومها الرئيسية، وتشارك في الصراع الاجتماعي والسياسي من أجل تحريك هذا الواقع» (فضل، ١٩٩٩: ٣٣ - ٣٤).

ويرى د. محمد عمارة: «أن الانسان الذي يعي ذاته وذات أمته من خلال القضايا الفكرية والثقافية، هو بالتأكيد ينطبق عليه تعريف المثقف» (المستقبل العربي، ١٩٨١: ١٢٢).

ونؤيد القول في ذلك، فالذي يضع المجتمع على المسار الصحيح بأفكاره التي اكتسبها واعياً بذلك واجباته كناطق عن المجتمع، ممكن أن يكون مثقفاً.

ثانياً: أنماط المثقفين وشروطهم

إن تعدد المواقف وتنوع الخصائص الثقافية والاجتماعية للنخب المثقفة يكشفان عن تباين مستويات انخراطها الاجتماعي ضمن حقول وقطاعات المجتمع، لا عن مدى انفصالها عنه. كما أنها تعبر عن الدور المؤثر للمصالح والحسابات والولاءات (الجهوية والإثنية أو الطبقية) التي تساهم في رسم المشهد السياسي والثقافي وتشكيل سيناريوهات الاصطفاف داخل مساحات المجتمع وفضاءاته.

إن تناول أنماط المثقفين وشروطهم يساهم في معرفة مختلف العوامل التي تؤثر في عدم تجانسهم، كما يمكن أن يفسر كيفية توزيعهم بين المواقف والأوضاع الاجتماعية. كما تسهم في معرفة أسباب تبني هذه النخب مواقف متباينة، وكمثال على ذلك ما حدث في الصين، حيث وصلت هذه النخبة كما يقول ماكس فيبر (M. Weber) إلى هذه المرتبة بفضل التعليم المتاح فقط لفئة محددة من عامة الناس.

١ - أنماط المثقفين

تجدر الإشارة إلى أن هناك مساهمات نظيرية كثيرة في هذا الشأن، منها على سبيل المثال تصنيف عاطف أحمد فؤاد، حيث نجد أنه يتناول أنماط «استجابة النخب المثقفة إزاء القهر الأيديولوجي»، ويرى أن المواقف والاستجابة تكونان بصور متعددة، وتتوزعان على أربعة أنماط، هي: النمط المسابير والمداهن؛ النمط المقاوم أو المتمرد؛ النمط المنسحب؛ النمط المتردد.

النمط المسابير أو المداهن ثم النمط المقاوم أو المتمرد، هما أكثر الأنماط شيوعاً عبر تاريخ العلاقة بين الفكر والسياسة. أما النمط الثالث فهو النمط المنسحب الذي يرتبط بحالات فردية ولبدة ظروف زمنية خاصة. وأخيراً النمط المتردد الذي لا يمثل ظاهرة عامة، وهو من الأنماط الحائرة غير المستقرة التي تتعايش مع أي شكل من أشكال السلطة (فؤاد، ١٩٨٠: ٢٣)، أي تصنيف أصناف المثقفين الذين ينضون تحت راية مفهوم المثقف، وكيف تتوزع أنماطهم هذه في الحياة وعلى كافة المستويات، ولنا أن نلاحظ كيف يكون الأثر في المجتمع بمواجهة أنماط من المثقفين لا تميل إلى مصلحة المجموع، وإنما يكون همها الأول والوحيد خدمة الذات فقط.

ومن التصنيفات المشهورة في هذا المجال تصنيف الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي (A. Gramsci) الذي يدعو إلى البحث عن المثقفين في مجمل العلاقات الاجتماعية، فهم يتوزعون على مختلف المجموعات الاجتماعية بحيث إن لكل جماعة اجتماعية مثقفينها، وبهذا يتحدد دورهم داخل المجتمع. إذ يحاول غرامشي أن يظهر إمكانية تصنيف الذين يؤدون الوظيفة الفكرية في المجتمع إلى نوعين:

– مثقف تقليدي (Traditional Intellectual) مثل رجال الدين، والإداريين والعلماء ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل إلى جيل.

– مثقف عضوي (Organic Intellectual) يضم المفكر والعنصر المنظم في طبقة اجتماعية أساسية معينة. وكان غرامشي مؤمناً بأن المثقفين العضويين يشاركون في المجتمع بنشاط، أي أنهم يناضلون باستمرار لتغيير الآراء (سعيد، ١٩٩٦: ٢٢).

وتركيز غرامشي هنا على الوظيفة الاجتماعية يعني دور المثقف في توجيه أفكار وتطلعات الطبقة التي ينتمي إليها، أي القيام بممارسة منتظمة للتفكير في الواقع الاجتماعي والسياسي والمشاركة في تغييره، وفي هذه الحالة يصبح المثقفون أنتلجنسياً (عضوياً) ويتسع مصطلح المثقف ليشمل جميع الذين يصطبغون بالثقافة ويحملونها ويطبغونها، حيث برزت أهمية كبيرة للأنتلجنسيا التي يختلف دورها بشكل كبير عن أنماط المثقفين الأخرى من ناحية حمل هموم المجتمع والعمل بقوة واستمرار لغرض حلها والقضاء عليها.

كما أشار «نور الدين زمام» إلى أنماط المثقفين، إذ قام بتوزيعها حسب المواقف الآتية:

– منظمو الوظيفة الاقتصادية: للطبقة التي يرتبطون بها، أي أنهم يمثلون الشريحة التكنوقراطية والسياسية.

– حملة وظيفة الهيمنة: التي تمارسها الطبقة السائدة، ويتألفون من العاملين في مجالات النشر والإعلام والسينما والأحزاب.

– منظمو الإكراه: الذي تمارسه الطبقة السائدة، ويتألفون من الوزراء والنواب وكوادر الجهاز الإداري والسياسي والقضائي والعسكري (زمام، ٢٠٠٨: ١٢٨).

أما منذر سليمان فقد قسم المثقفين من حيث المواقع والمواقف إلى:

أولاً الموقع الحزبي: وما أقل المثقفين داخل الأحزاب السياسية والوطنية العربية، في مناخ لم تعد فيه الأحزاب فاعلاً رئيسياً في الحراك السياسي والجماهيري العربي، والحال أن خيارات المثقف الحزبي محدودة، فهو عاجز للاعتبارات الحزبية والتنظيمية عن خوض معركة التنوير الفكري والثقافي المطلوبة داخل الحزب الواحد.

– **الموقع غير المنظم:** ولكن المقرَّب من التنظيم الحزبي، ويمارس المثقف من هذا الموقع قدراً من الاستقلالية في خطابه، مع مراعاة الانسجام مع التوجهات العامة للتنظيم المذكور (سليمان، ٢٠٠٦: ١١٨).

– **الموقع المستقل:** ومع نسبة الاستقلال طبعاً يلاحظ المراقب احتشاداً كبيراً لهذه

الفئة التي تنتقل بين الرصيف والشارع، مع استحسان مقاعد الرصيف حيث فرص المشاهدة والانتقاد، من دون أن يكون لإطلاق المواقف أي تبعات أو مسؤوليات.

– **الموقع الملتبس بين المنظم والمستقل:** حيث ينخرط المثقف في منظمات ناشطة غير حكومية ليس لها صلة بالتمويل الأجنبي، ويأمل أن يعوض بنشاطه في شعوره بالعزلة بعيداً عن الانخراط الحزبي، لغياب الأحزاب التي تستحق في رأيه الانتماء إليها (سليمان، ٢٠٠٦: ١١٩)، ومن خلال ذلك نلاحظ الطريقة التي صنّفت بها أنماط المثقفين، وكيف تتلون هذه الأنماط في المجتمع لغرض الحصول على المكاسب متناسبة دورها الجوهرية في الحياة والمتمثل في إعادة صياغة المجتمع وفق أصول صحيحة.

٢ - شروط المثقف

إذا كان التمييز ضرورياً بين المثقف الحقيقي والمثقف المزيف، وشبه المثقف، فإن حديثي لن يتوقف عند هذه الأصناف من أدياء الثقافة، بل سيركز على الشروط الواجب توافرها في المثقف الحقيقي ليكون مثقفاً فعلياً، وحقيقياً، فحينها فقط يطرد هذا المثقف كل الأصناف الرديئة الأخرى تماماً، كما تطرد العملة الجيدة العملة الرديئة. وثمة شروط أشار إليها بعض الباحثين، لا يقوم مثقف عربي أصيل دونها، وهي ككل الشروط الإنسانية متداخلة، متكاملة متفاعلة، وتدخل من إحداها إليها جميعاً، وكما تفقد أكثرها إذا فقدت واحداً منها: إذ يؤكد د. هشام شرابي أن ما يميّز المثقف في أي مجتمع صفتان أو شرطان أساسيان:

– الوعي الاجتماعي (Social Consciousness) الذي يمكن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياه بمنظور شامل، يستطيع من خلاله تحليل هذه القضايا على مستوى نظري متماسك.

– الدور الاجتماعي (Social Role) الذي يحققه بهذا الوعي بما يضيف له بعداً استراتيجياً يضاف إلى قدراته الخاصة وكفاءته المهنية (فضل، ١٩٩٩: ٣٣)، حيث يعد وعي المثقف من الضرورات الملحة التي تنتقل به من عالم اللامحسوس العقلي إلى الأشياء المركزية القابلة للتصرف والتعامل معها وفق أسس صحيحة.

أما د. محمد عابد الجابري فيؤكد أن أحد الشروط ليكون الشخص مثقفاً هي: الرغبة في الكشف عن الحقيقة؛ أن يكون شجاعاً؛ أن يكون مستعداً للذهاب بالبحث العقلاني إلى أبعد مدى؛ أن يقوم بنقد صارم لكل ماهو موجود، صرامة تحول دون تراجع النقد، لا أمام النتائج التي يقود إليها هو نفسه ولا أمام الصراع مع السلطة أيّاً كانت (الجابري، ٢٠٠٠: ٢٤ – ٢٥).

أما معن بشور فقد أشار إلى أربعة شروط لا يقوم مثقف عربي دونها، وهي:

– نزاهة القصد: حيث يلتقي الثقاف في بالأخلاقي ولا بالمعنى الديني أو التقليدي أو السائد لمفهوم الاخلاق فقط، بل بالمضمون الفلسفي لهذه القيمة الإنسانية الخالدة التي تشكل ركناً لكل الأديان بل علماً رئيسياً من علوم الفلسفة المشغول عبر الزمن بانتظام حياة المجتمعات وحركة الأفراد.

فالمثقف الحقيقي هو الباحث عن الحقيقة بدون وجل، والمعبر عنها بدون مجاملة أو محاباة أو طمع، والمستعد دائماً لمراجعتها إذا برزت له صورة أصدق وأشمل عنها. والنزاهة هنا بهذا المعنى، هي قيمة مطلقة لا تعرف القيوم أو المصالح أو الغرائز أو العصبية، بل إنها أرقى أشكالها، فهي تحرر صاحبها حتى من الشعور بالنزاهة (بشور، ٢٠٠٤: ١٧٥).

– سلامة الرؤية وحسن التقدير: وكلاهما مرتبطان بالقراءة الدقيقة للواقع بعيداً عن الأفكار المسبقة التي كثيراً ما تمنح القدرة على التقدير السليم والرؤية الثاقبة، وبعيداً عن ثنائية التبشير والتشهير والتهويل التي كثيراً ما يقع فيها مثقفونا.

– شجاعة موقف المثقفين: لأن هذه الشجاعة هي الجسر الذي يعبر من فوقه المثقف، ليستقر في ضمير شعبه ووجدان أمته.

– القدرة على التجدد والتجديد في الوسائل والأساليب والآليات: ذلك أن ثقافة الوسائل لم تعد تقل أهمية عن ثقافة الرؤى والتطلعات، ولم تعد أيضاً أقل حيوية من ثقافة الأهداف والغايات (بشور، ٢٠٠٤: ١٧٥ - ١٧٩).

ثالثاً: المثقف العربي أدوار وأسئلة

ما شهدته العالم من انهيار في القيم والنظم وانكسار لنماذج التفكير والعمل، وما شهدته الوطن العربي خصوصاً من فشل في مساعي الوحدة ومشاريع التنمية، ومن نزاعات وحروب وكوارث اجتماعية ووطنية في بعض مناطقه ودوله، كل ذلك يُبقي الأسئلة مشكّلة حول مهمة المثقف ودوره، ويحمل على إعادة التفكير في علاقة المثقف بالدولة والمجتمع والجماهير. إذ إنه في المجتمعات المعاصرة قد تتعدد أدوار المثقفين ومكانتهم، فهم قد يؤدون أدواراً رائدة في المجتمعات، أو قد يخفّض هذا الدور ويصل إلى حدّ الخسوف لأسباب عديدة، وفي أحيان أخرى يصبح المثقفون بحد ذاتهم خطراً على العمل الثقافي والديموقراطي وحرية التعبير بفعل ما يقدمونه إلى الحكّام من مسوغات للممارسة الدكتاتورية.

لذا شهد التاريخ العربي المعاصر عدة أنماط لأدوار (علاقات المثقف). ومن هذه الأدوار دور المثقف في المجتمع وموقفه من السلطة، فالمثقف في التجربة العربية المعاصرة لم تفارقه السياسة والمجتمع كمواضيع وثيقة الصلة به ويؤثر كل طرف في الآخر.

١ - دور المثقف في المجتمع (المثقف العربي بين الانكماش والتواصل الاجتماعي)

لقد عاش المثقف العربي في محيطه الذي نهل منه الكثير من القيم والرموز التي بلورها بمنظومة فكرية برزت من عين فاحصة وجعلها أداة يقوم بها المجتمع، فالمثقف يؤثر ويتأثر بما يحيط به من أفراد وقرارات وظروف وميادين، ومن المؤكد أن أي مجتمع يعيش صعوبات أو أزمات أو منعطفات أو حالة مفترق طرق بحاجة إلى نوعية معينة من أفراد المجتمع كي تقوم بأعمال وأدوار تسهم في تغييره أو تطويره نحو الأفضل، ومن هنا فقد اعتمدت مجتمعات كثيرة على عقول مثقفها وأساساتهم التي تساهم في انتقال المجتمع من حالة متدنية إلى حالة

أخرى، أي السير بالمجتمع من حالة التأخر إلى حالة التقدم والنهوض، وهناك مجتمعات كثيرة، قد تسلّقت قمم التقدم بفضل مثقفها وإرهاصاتهم النوعية في بناء المجتمع.

فالمثقف وليد تأثيرات المجتمع، فلا يمكن له العيش والتفكير مع افتراض انعدام تأثير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مجتمعه فيه، فمن الصعوبة تصور نشوء مثقف من فراغ بل هو نتاج ظروف معينة تمر وتؤثر فيه بقوة، فالمثقف مشدود إلى الواقع الذي يحيط به، إلا إذا أراد المثقف الانعزال بوعي منه لذلك، أو من دون وعي بذلك (العليو، ٢٠٠٥).

فالمجتمع ينتظر أن يمده المثقف بما يصلح ويؤدي إلى دوام حالة من التطور والتقدم، ولكن ما يجب أن يمده المجتمع للمثقف هو المناخ الملائم للقيام بأداء الدور وفق أسلم المناهج، وليس الدخول في موجات الضياع وعدم وضوح الرؤيا في كيفية التعامل مع المستجدات في المجتمع وما ينبغي تقديمه له، إذ إن نجاح المثقف حتى يكون مثقفاً نوعياً يعتمد أيضاً وبشكل كبير على ما يمنحه المجتمع لذلك المثقف من مناخات تتلاءم مع موقعه وطريقة تفكيره ومستوى إبداعه.

فهل هناك تلاؤم أو انفصال واضح بين المثقف وعموم المجتمع العربي؟

لا يمكن للمثقف الاستغناء عن المجتمع مهما كانت طبيعة هذا المجتمع ومهما كانت طبيعة المثقف، لأن المثقف يهتم بالشأن العام للمجتمع كالوعي والنقد، فلا بد أن يكون ذا علاقة بالمجتمع، ولكن الإشكالية هي في كيفية هذه العلاقة، فقد تأخذ منحى وصايا المثقف على المجتمع، وقد تأخذ منحى مشاركة وتعاون المثقف مع المجتمع، وقد تأخذ منحى تبعية المثقف للمجتمع (العليو، ٢٠٠٥).

هناك من يقول إن المثقف بعلاقته بمحيطه في المجتمع العربي، يعيش انفصلاً واسعاً بينه وبين الجمهور العادي، أو بتعبير آخر انفصلاً بين منتج الثقافة ومستهلكها، ليغدو الحال أشبه بمثقف نخبوي محدود التواصل والتفاعل مع أفراد مجتمعه وقليل العطاء لهم.

ومن المعلوم أن الانفصال يصبح بصورة أكبر عند عدم توفر الأرضية المناسبة لكلا الطرفين، فإذا لم يمنح المجتمع بجميع مفاصله ما يؤمن عمل المثقف، لا ننتظر منه عطاءً لإصلاح وتقويم المجتمع، وقد يؤمن مجتمع ما كل المقومات الرئيسية له، إلا أن المثقف قد لا ينتج ولا يبدع، وعند ذلك لا يمكن أن يسمّى ذلك مثقفاً.

يؤكد فيصل العوامي وجود شبه قطيعة، مشوبة بشيء من العمد والتقصد بين المثقف والمجتمع، وقطيعة يتحمل فيها المثقف القسط الأكبر من المسؤولية، وذلك لما يشيع في وسطه من الظروف والاعتزال عن المجتمع، ويستدل على تلك العزلة الاجتماعية من خلال عدة ملاحظات، أحدها: ضعفٌ قد يصل إلى حدّ العدم فهو من النوع البعيد جداً عن المجتمع وهمومه، وثانيها: ما يصدر منه في بعض الأحيان من هجوم على المجتمع إما في حالة تشكيه من عدم مبالاة المجتمع به وعدم تقديره له، أو في حالة إظهاره للنواقص السلوكية والذهنية التي يعتبرها المثقف أمراً لا يطاق (العوامي، ١٩٩٩: ١٢٩ - ١٣٠).

يرجع عبد الله عبد الدائم بعد المثقف عن المجتمع إلى أسباب عدة، منها أن تجاوب المجتمع مع المثقف رهن بقدرة هذا المثقف عن أن يفصح عما يختلج في أعماق ذلك المجتمع، ونزعة المثقفين إلى الاهتمام بالآخر «الغرب»، وعدم اضطلاع المثقفين بدورهم التغييرية، وغياب الرؤية الحضارية الشاملة لدى كثرة المثقفين، وتشتتهم وعجزهم عن تكوين قوة ثقافية متكاملة مترابطة، بينما يرجع بعد المجتمع عن المثقف إلى أسباب عدة، منها تشوه المجتمع العربي وأمراضه، وسيطرة بعض أنماط الفكر الديني التقليدي المتخلف الذي ولّدت عصور الانحطاط، والمستوى الثقافي الضحل للكثير من أفراد المجتمع العربي (عبد الدائم، ١٩٩٥: ١٥٤ - ١٧٠).

وقد أدرج العوامي بعض الخلفيات المؤدية والمركّسة لحالة الاعتزال لدى المثقف من خلال تتبعه لفكر وسلوك المثقف، ومنها:

– ينظر المثقف إلى المجتمع بمنظار فوقي، يجعله يصنّف مجمل التعاملات الاجتماعية في خانة البساطة والسذاجة.

– إن ما يجعل المثقف شديد التحسس مع المجتمع شعوره الدائم بأنه مهمل في وسطه.

– دعوى ضرورة نقل المجتمع إلى المستوى المعرفي المتطور للمثقف، لا العكس، إذ صرّح الكثير من المثقفين بأننا يجب أن ننقل المجتمع إلينا لا أن نُنقل نحن إليه، حتى يجبر المجتمع على التحرك بخطى حثيثة نحو المثقف، من جهة، ومن جهة أخرى حتى يعلن المثقف عن استقلالته وتميزه الاجتماعي.

– لا يجد المثقف نفسه مضطراً إلى الاهتمام المباشر بحل الإشكالات الاجتماعية، خاصة الإشكالات التفصيلية. إن المثقف غالباً ما يجد نفسه معنياً إلا بالتحصيل العلمي والسعي إلى مضاعفة تراكمه المعرفي، ومن ثم النقد ونقد الحالة السائدة ونقد الفكر السائد (العوامي، ١٩٩٩: ١٣١ - ١٣٣)، ولعلّ الابتعاد عن المجتمع بالترفع أو عدم إشغال الفكر بهموم ومشكلات ذلك المجتمع فإن ذلك من شأنه أن يجعل من المثقف معزولاً عن مقومات نجاحه، ألا وهو المجتمع الذي يمكن أن يمدّه بما يقوّم عمله، وبالتالي تحقيق نفع المجتمع وتطوره.

يصرّح د. محمود عبد الفضيل في بحثه الموسوم «المثقف العربي، سعياً وراء الرزق والجاه»: «لقد اختار المثقفون العرب في معظمهم أسلوب «العزف المنفرد» في عزلة عن حركة الجماهير في المجتمع، وفي عزلة بعضهم عن بعض، وانتشرت بينهم أمراض (الفردية) و(الشللية) وحفلت المنطقة العربية بنموذج (المثقف الطاووس) يختال عجباً بنفسه الذي لا يرى إلا نفسه في المرأة، ولا يرجع سوى إلى أعماله» (عبد الفضيل، ١٩٩٥: ١٢٤ - ١٣٥)، فمع هذه الحالات لا يمكن أن نسّمّي من يتصف بهذه الصفات مثقفاً، إذ لا تتطابق المهمة الرئيسية له مع ما يملكه من صفات.

يقول علي حرب، في كتابه الموسوم **أوهام النخبة**: «وهكذا يجد المثقف نفسه اليوم أشبه بالمحاصر وليس السبب في ذلك محاصرة الأنظمة له، ولا حملات الحركات الأصولية عليه، كما يتوهم بعض المثقفين بالعكس، ما يفسّر وضعية الحصار هو نرجسية المثقف وتعامله مع

نفسه على نحو نخبوي اصطفايي، أي اعتقاده بأنه يمثل عقل الأمة أو ضمير المجتمع أو ممارس الوعي؛ إنه صار في المؤخرة بقدر ما أعتقد أنه يقود الأمة وتهمش دوره بقدر ما توهم أنه هو الذي يقرّر إنقاذ المجتمع من الجهل والتخلف» (حرب، ٢٠٠٤: ٨٠).

ومن هنا لا بدّ أن نلاحظ أمراً وهو أن العزلة عن الجماهير وعن المجتمع من شأنها تهية الجو لنشوء إشكالية خطيرة على عقل المثقف وعلى برنامجه الاجتماعي. إن دور المثقف متى يسمّى كذلك هو أكبر من حمل العلم والفكر، وإنما استخدامه للنفع العام وممارسة الدور النقدي الذي يعمل على أخذ الصالح دون الطالح من كل شيء.

٢ - المثقف والسلطة

السلطة هي نظام يتطلب كي يصبح سلطة أن تحوز قبول الآخرين ورضاهم معرفة تزوده بوسائل الضبط والرقابة كما بأدوات الإقناع والهيمنة. هناك ثلاث عضوي متماسك يتكوّن من النظام والمعرفة والسلطة، والمثقف هو الذي يزود السلطة بوسائل الضبط بواسطة المعرفة التي ينتجها، فكل نظام يستدعي معرفة تقوم بالعمل على صياغة الحقيقة.

ولا يتوقف المثقف عن إعلان استقلاله عن الدولة وأجهزتها أو عن السلطة وإغراءاتها فهو يتعامل مع نفسه كمسؤول عن القيم والحريات يعتبر أنه يؤدي مهمة بالوقوف في صف المعارضة أو باستعمال سلاح النقد لتعرية ما تمارسه الدول والأنظمة والسلطات من أشكال التفاوت والقهر والاستغلال، أو لفضح ما تخفيه من آليات التمويه والتلاعب بالحقائق والوقائع، هذا شأن المثقف (حرب، ٢٠٠٤: ٥٦).

إذ لا يملك أحد أن يزايد على المثقفين بدروس في الشجاعة أمام السلطة، لأن أكثر الشهداء والمعتقلين والمنفيين مثقفون.

يؤكد د. معن زيادة «أن مهمة المثقف فيما يتعلق بالسلطة قد تكون ذات طابع درامي، ذلك أن المهمة الأساسية للمثقف قد تكون مهمة الاستشهاد، على المثقف أن يواجه السلطة لأن هذه السلطة غالباً ما تسير في خط معاكس لكل ما يمثله المثقف. ولما كانت السلطة في غالب الأحيان هي سلطة قمعية، لم يبق للمثقف إلا المواجهة، وربما الاستشهاد، إلا أن الكثيرين منهم لم يصلوا إلى الاستشهاد الحرّي، ولكن إلى أوضاع لا تختلف كثيراً عن الاستشهاد الفعلي» (المستقبل العربي، ١٩٨١: ١٢٦).

وربما إن الحقل الثقافي يختلف عن الحقل السياسي، فالثقافة يتميز بثباته النسبي وبصيرورة ترتبط بديمومة الإنتاج المعرفي، على خلاف السياسي المباشر المتغير حسب حال وظروف المجتمع الموصولة بالحاضر المرتبط بالتحويلات في توازن القوى وما قد يحدث من صعود وهبوط في درجات السلطة (النبأ، ٢٠٠٦: ٨٥).

صحيح أن سلطة المثقف هي من نوع آخر، بمعنى أنها ليست سلطة مادية أو اقتصادية بل هي سلطة رمزية، أي سلطة الكلام والكتابة مقابل سلطة السيف والمال، ولكنها سلطة في النهاية تمارس على النفوس والعقول، بواسطة المنتوجات الرمزية المتمثلة في الأفكار والمعارف أو في العقائد والطقوس أو في الشهادات والألقاب (حرب، ٢٠٠٤: ٥٧).

يقول الشاعر الروسي جوزيف بروتسكي (الحاصل على جائزة نوبل للأدب): «إن هناك سوء تفاهم بين المثقف والسياسي، فالمثقف يمثل الدائم الأبدى، في ما السياسي يمثل الموقف الراهن. ويقول إن الضغينة التي يحملها رجال السياسة على المثقفين والمبدعين مردّها إلى أنهم يشعرون بأهمية هؤلاء، وإلى أنهم يدركون أنفسهم بأنهم عابرون، على الرغم من الضجيج الذي يُحيط بهم، وعلى الرغم من استيلائهم على الحاضر يشعرون بأن المثقفين والمبدعين يستولون على المستقبل وعلى الزمن بكامله (بزيع، ٢٠٠٦). وهذا ما لاحظته أحد مثقفي أمريكا اللاتينية الذي يقول في تقريره «إن هيمنة العسكريين كانت تعني الاختفاء أو الخسوف الكلي لبعض المثقفين، وهو الأمر الذي تحقق من خلال ممارسة الضغوط على أنشطتهم والمثقفون يعدّون بالنسبة إلى العسكريين تجسيدا للشر السياسي» (زمام، ٢٠٠٨: ١٢٩).

ويؤكّد هشام جعيط ذلك من خلال قوله: «إن دور المثقف ضئيل بالنسبة إلى رجل الحكم ورجل السياسة ورجال المال، الظاهرة تكمن على ما أراه في أن رجل الثقافة في العالم الإسلامي والعربي بالخصوص كان ملتزماً، كانت الأوساط الحاكمة يغلب عليها الطابع العسكري وتحتاج كتكلمة إلى من يتزعمون الحركات الفكرية ويؤطرون المجتمع من نواحيه الروحية والفكرية، والآن حصل أمر جديد وهو أن رجل السياسة يتزعم كل نشاطات الأمة فهو يتكلم باسمها لا على سبيل الممارسة فقط، وإنما الفعالية السياسية بالمعنى المحض، وله نظرة شمولية إلى المستقبل وإلى تأويل التاريخ فيصبح مجتهداً وفقياً وأديباً وعالمياً إلى غير ذلك» (المستقبل العربي، ١٩٨١: ١٢٥ - ١٢٦).

إن خشية السياسي من المثقف تنبع من الخوف من السلطة المعرفية التي تحرّك المجتمع الذي يُبنى بالمعرفة لكن يُدار بالسلطة، فالبقاء للبناء ومن ثم الإدارة.

ويمكن أن تكون العلاقة بين المثقف والسياسي مشروطة بشرطين اثنين هما: **الندية**، أي أن تكون علاقة ندية بين متكافئين والنقدية: أي أن يمارس المثقف حقّه النقدي المطلوب منه كمثقف بوجه جميع أفراد المجتمع، ومن ضمنهم السياسي والسياسيين، الذين غالباً ما يتم انتخابهم لأسباب لا علاقة لها بالمستوى الحقيقي للسياسة، إذ قد تكون أسباب السلطة والنفوذ والمال والعلاقة بالطبقة الحاكمة، إلا أن الملاحظ أن أهل السياسة قد لا يقبلون بهذين الشرطين بل يريدون المثقف تابعاً ومنقاداً وخادماً لهم، ولا يرضون بالنقد حتى وإن كان موضوعياً منطقياً بنأ (بزيع، ٢٠٠٦).

وقد قدّم صلاح فضل ثلاثة أشكال للعلاقة بين المثقف والسلطة:

– **مثقف السلطة**: وهو الذي يضع فكره ومهارته ورأيه وخبرته في خدمة السلطة ولاءً لها، وتماهياً معها وتوافقاً مع مقتضيات سيادتها، وبقدر ما يحدث هذا التماهي يفقد المثقف عنصراً جوهرياً في وظيفته، وهو فقد الأفكار، ولا يمكن عملياً أن يحدث بصفة دائمة، إذ سرعان ما تظهر التناقضات ويتسع الخلاف.

– **المثقف المتعاون مع السلطة**: وهو النموذج الغالب كما سنرى، ويتفاوت مدى التعاون طبقاً لأهداف السلطة في توظيفها للمثقفين من ناحية، وقدرة هؤلاء من ناحية أخرى على

التوافق النسبي مع هذه الأهداف لاكتساب مجال حيوي للعمل العام. ويلعب الإعلام في الدولة المدنية الحديثة دوراً بالغ الحساسية والأهمية باعتباره فضاء هذا التعاون، فهو أداة للحكم من ناحية ووسيلة لنشر الأفكار والآراء من ناحية أخرى، وعلى رفقته تتم المصالحة الموقوتة غالباً لاعتبارات عملية بين المثقف والسلطة (فضل، ١٩٩٩: ٣٤).

لقد استطاعت بعض الأنظمة السياسية التي حكمت مجتمعنا العربي طيلة العقود الماضية أن تستتب فئات شتى من المثقفين الموالين لها ممن يصطلح على تسميتهم بـ «مثقفي البلاط» التي تبدأ بأولئك الذين آثروا الصمت والتزموا الحياد والسلبية تجاه مآسي مجتمعاتهم ومعاناتهم، ثم الذين قدموا طوعاً أو كرهاً بعض أشكال الدعم والمساندة للحكام والتأييد لهم، وأسوأهم من اندمجوا بالسلطة ومغانمها، وصارت مهمتهم الرئيسية تبرير أفعال السلطة وسياساتهم.

وكما أكد علي حرب بأنهم الذين التحقوا بالسلطات والدول وعملوا في خدماتهم كأجهزة أيديولوجية يزيّتون أفعالها ويدافعون عن فشلها وهزائمها، ويبررون ما أحدثته من تبيد للموارد أو تدمير للمكتسبات (حرب، ٢٠٠٤: ١٤٥)، إذ إنهم يعملون بعقل السلطة المضطهدة وليس بعقل المثقف الواعي الذي تكون مهمته هي إنقاذ المجتمع من الضياع والدكتاتوريات التي ممكن أن تهّمشه وتسيطر عليه.

– **المثقف المضاد للسلطة:** المناضل في وجهها، ولا بد أن يكون منفياً أو مهاجراً، وقد كان هذا كثير الحدوث في حالات السلطات الفاقدة الشرعية بشكل فادح (فضل، ١٩٩٩: ٣٤).

وأضاف عبد الإله بلقزيز ثلاث ملاحظات نقدية للمثقف فيما يتعلق بعلاقته:

الملاحظة الأولى: تتعلق بنخبوية المثقف: فالغالب على رأي الناس في المثقف اليوم أنه كائن يحيط نفسه بهالة من الالتباسات ترفع من قيمة بضاعته إذ يتهمونه بالإغراب في عالم مغلق على محيطهم الاجتماعي، يفهمون لعبته جيداً فيقرأون فيها محاولة متبرجة لإشهار تميزه عنهم وعلو مقامهم على مراتبهم، ومشكلته هو كامن في أنه إن يثار لنفسه بهذه النخبوية محققاً بها وفيها بعض التعويض النفسي عن الشعور بالهامشية.

الملاحظة الثانية: بتحزبه: أي باختياره موالاة قسم من المجتمع دون آخر، ويحسب المثقف ذلك من صميم حقوقه المدنية والسياسية كمواطن، غير أن الجمهور «جمهور العامة» وجمهور أصناف أخرى من المثقفين لا يذهب مذهبه ولا يشاطره الرأي، بل يخال التحزب الذي يبديه خيانة لدوره المفترض، وحجة الجمهور في ذلك أن المثقف ممثل لضمير الجماعة (الأمّة والشعب) وأنه لا يجوز أن ينحاز إلى فريق منها على حساب آخر (بلقزيز، ١٩٩٨: ١٤).

الملاحظة الثالثة: ضعف جرأته على السلطة: وميله إلى تحاشي مواجهتها بل والصمت عنها كلياً، ويتعلق هذا الأمر بمن يفترض بهم أن يدافعوا عن سلطتهم المعرفية الرمزية في مقابل السلطات المادية السياسية، وإحجامهم عن الدفاع بالصوت الجهير عن قضايا الناس والمجتمع كائنة ما كانت الظروف والأوضاع (بلقزيز، ١٩٩٨: ١٥).

فالمثقف في بعض الأحيان قد يقوم بدور الناقد للسلطة القائمة، إلا أنه في أحوال أخرى قد يقوم بدور المبرر للسلطة والمدافع عن كل سياساتها الصالحة منها وغير الصالحة، وحينما تشتد به حالة الاغتراب قد ينسحب من الحلبة ويقنع بالتفرج على ما يجري في ساحة المجتمع، عاجزاً عن المشاركة، يئساً من قدرته على تغيير المسار نحو ما هو مقتنع بأنه صحيح.

إن أسوأ ما يلحق بالمجتمع من ناحية مثقفيه هو انجرارهم إلى أساسات السلطة، فالمثقف عندما ينصاع للسلطة، سواء فرضت السلطة عليه ذلك أم لا، يتحول المثقف إلى مجرد آلة تسيير وفق ما يريد مالکها، وبذلك لا يبدع وفق ما تمليه عليه معطياته الفكرية، وإنما يصبح بوقاً من أبواق السلطة، ومجرد فكر مشوّش غير قادر على تمييز الخطأ من الصواب، وبذلك ينتهي دوره كمثقف له منزلة وتختلف عن غيره، وينساق لما يريد مديرو السلطة، الأمر الذي يؤدي إلى قتل الثقافة، وبالتالي يعود ذلك على تفكك أواصر المجتمع المعرفية، لأن ما يستند إليه المجتمع أصبح مفزغاً من الداخل ومحبّذاً لسياسات السلطة من دون فسخ المجال له لخدمة أغراض المجتمع.

ومن نتائج ذلك فقد أصبح بعض المثقفين العرب رموزاً سياسية محضة، كتاباتهم في غالبيتها صحفية الطابع وهجومية، تهتم فقط بالحدث اليومي، وكأن الحدث اليومي هو الحدث المركزي في تاريخ الأمة، وسرعان ما يأتي حدث آخر فيتحمس المثقف له ويشغل نفسه به؛ الأمر الذي أدى إلى فقدان الرؤية الواضحة للمشاكل التي ابتلي بها المجتمع.

رابعاً: طه حسين مثقفاً (بين السلطة الدينية والسياسية)

لقد كان طه حسين منتبياً إلى الطبقة الوسطى، وذهابه للتعلّم في الغرب هو الذي حدد رؤيته ووعيه وممارسته وإيجاد نظرة جديدة للواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه؛ الأمر الذي أوضح موقفه السياسي وإدراجه في نمط المثقف المتمرد قبل ثورة تموز/يوليو، إلى المثقف المهادن أو المؤيد لكثير من قضايا عصره.

ومن ضمن ما كان يراه طه حسين هو أنه ليس كل متعلم هو مثقف بالمعنى الدقيق للكلمة، فالمثقف عنده هو الشخصية التي تتميز بقبول المعرفة في مختلف ميادينها وفروعها، ويحدد مسؤولية المثقف من خلال البيئة التي يحيا فيها وحظها من الثقافة والعلم (فضل، ١٩٩٩: ٣٤).

وفي نمط التمرد لديه، فقد وقف طه حسين بوجه السلطة الدينية للأزهر عام ١٩١٢ (وهو في الثالثة والعشرين من عمره) عندما تقدم لامتحان العالمية فرفضت إجازته لتمرده، وقد واصل طه حسين اصطدامه بالسلطة الدينية للأزهر، وكذلك السلطة السياسية والمتمثلة بمجلس النواب عندما قُدّم للمحاكمة عام ١٩٢٦ على كتابه **في الشعر الجاهلي** (فضل، ١٩٩٩: ٣٤)، الأمر الذي يشير إلى الروح المتمردة لمثقف كطه حسين في رفضه ما لا يصلح وفق رؤيته للأمر من ناحية السلطة الدينية والسياسية، واصطدم بهما معارضاً لكل

نواياهم، مما أثار حفيظة هذه السلطات عليه، وحاولت اتهامه بالوقوف ضدها ومحاولة تجريمه بذلك.

وعندما رشح ليكون أول عميد عربي لكلية الآداب اصطدم طه حسين بالسلطة السياسية بعد عامين فقط عام ١٩٢٨، الأمر الذي أدى إلى اعتراض حكومة الوفد على ذلك، ممّا حدا به إلى تولّي منصب العمادة يوماً واحداً، ثم قدّم استقالته (فضل، ١٩٩٩: ٣٤).

كذلك رفض طه حسين منح درجة الدكتوراه الفخرية لشخصيات سياسية بعيدة عن الانتاج العلمي والثقافي عندما عين عميداً لكلية ذاتها عام ١٩٣٠، الأمر الذي أدى إلى إقالته من منصبه وإبعاده عن الجامعة كلها (فضل، ١٩٩٩: ٣٥).

وممّا لا شكّ فيه يتضح من ذلك رفض طه حسين لكل الأوضاع التي تؤدي إلى تعطيل الثقافة وتحطيمها، وهو بذلك قد مثّل نموذجاً للمثقف العضوي الذي ينتفض ويتحرك لإزالة كل ما يعيق عمل الثقافة والعلم، وبالتالي المجتمع.

وقد عاد طه حسين عميداً للآداب عام ١٩٣٦، وبقي في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات انتدب بعدها مديراً مؤسساً لجامعة الإسكندرية، بعدها أحيل على التقاعد الجبري، وتولى وزارة المعارف في حكومة الوفد الأخيرة منذ كانون الثاني/يناير ١٩٥٠ - ١٩٥٢، وقد همّشته حكومة الثورة، بالرغم من حصوله على أول جائزة تقديرية عام ١٩٥٨، وتولّى رئاسة مجمع اللغة العربية عام ١٩٦٣، ومنح قلادة النيل عام ١٩٦٥، لكنه طرد بقرار تعسفي جمهوري من قبل السادات من صحيفة «الجمهورية»، ولم يعد له دور في الحياة العامة، وأيضاً قام طه حسين بمهادنة السلطة الدينية بسلسلة كتب أسماها «الأدب الديني» (فضل، ١٩٩٩: ٣٥).

ولم يكن طه حسين من أنماط مثقفي السلطة فهو لم يجامل السلطة أو يتقرب منها يوماً، وإن كان قد تسيّد بعض المناصب الجامعية وتماهى فيها مؤقتاً مع السلطة، وإنما كان همّه الأكبر هو العلم والنزاع الفكري والقضايا التي يعانيتها الوطن قبل ثورة عام ١٩٥٢، سواء ما تعلق منها بقضية التحرر الوطني والديمقراطية وموقفه من الأحزاب وقضية التحرّر الفلسطيني (عبد الغني، ٢٠٠٤).

ورغم المعارضة الكبيرة التي تعرض لها والهجمات الشرسة التي طالته والكتب الكثيرة التي حاولت تكفيره إلا أنه ظلّ وفياً لطبيعته النقدية، واستطاع أن يصبح بحد ذاته سلطة ثقافية، كما أنه لم يتحوّل إلى مثقف نقضٍ يعادي سلطات الحياة وحركة المجتمع (عبد الغني، ٢٠٠٤).

من ذلك تبرز لنا الصورة الحقيقية لمفكّر مثل طه حسين الذي كان متمرداً على الأنظمة السلطوية بجبروتها، والسلطات الدينية آنذاك بمواقفها، التمرد النقدي الذي يعارض كل ما من شأنه الحط من نظام الحياة المستقيم، ورفضه لكل ما من شأنه أن يعثر عجلة العلم والثقافة مما يؤدي ذلك إلى انتكاسة المجتمع والعودة به إلى الوراء.

إن طموح وعمل والروح النقدية لطله حسين هذه خلقت له الكثير من الرفض، الذي ترجم بمحاولة إقصائه وتهميشه وعزله من بعض المناصب التي تقلدها محاولة في إلغاء

صوته، مع مجاملته في بعض الأحيان ليخفف من سطوته النقدية عليهم، لذلك برز طه حسين نموذجاً للمثقف الواعي المدرك لحقيقة وضعه المعاش والمدرك أيضاً للمسؤولية الملقاة عليه كمتقف في تحرير المجتمع من كل ما يعيقه ويساهم في الانتعاش منه، ولم يكن جلّ همه التزلف للسلطات وكسب المغانم منها بقدر ما كان همه الأوحده هو وضع العلم والثقافة على طريقٍ صحيحة ومساهمة في وضع المجتمع وفق أسس مستقيمة لا ضعف فيها.

خامساً: علي الوردي: مثقفاً تنويرياً

ولد د. الوردي في أسرة فقيرة ومحافظة، لكنها متميزة ومعروفة بالعلم والشعر والأدب في مدينة الكاظمية المحافظة. توزعت ثروة الوردي الفكرية على عدة كتب، مثل «وعظ السلاطين»، «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي»، «مهزلة العقل البشري»، «أسطورة الأدب الرفيع»، «خوارق اللاشعور»، «منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته» و«لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث»، ومئات البحوث والمقالات.

إن من بين الأشياء التي عني الوردي هو البحث عن طبيعة الحياة الاجتماعية وحياة الفرد وسلوكه في الحياة اليومية من دون تحيّر أو انفعال، والغور كثيراً في شخصية الفرد العراقي من زوايا سوسولوجية.

وما يتميز به الوردي لغته السلسلة والبسيطة والسهلة للتلقّي بالنسبة إلى القارئ، كما أنه لم يكن من وعظ السلاطين وخطاباتهم، لكنه كان واعظاً من وعظ الحداثة التنويرية آنذاك.

إن أسلوب الوردي غلب عليه الوصف الأدبي والنقدي والحداثوي والتنويري، فضلاً عن أسلوبه وآرائه الساخرة التي لم يعتد عليها المجتمع العراقي.

لقد ذكر الوردي أن شخصية الفرد العراقي تحمل شيئاً من الازدواجية بالمعنى الاجتماعي الذي يختلف عن المعنى النفسي للمفهوم، إذ عدّه ظاهرة اجتماعية وليس مرضاً نفسياً، ويحدث عند الكثير من الناس وهو صراع ثقافي، كما أكد ذلك الباحثان الاجتماعيان بيج ومكايفر، إذ أطلقوا على هذه الازدواجية «الثنائية الثقافية» (الوردي، ٢٠٠٥: ٢٨٦).

ومن بين ما ذكره الوردي أنه أشار إلى أن الازدواج يستفحل عند أولئك الذين يعملون في السياسة، فبعد أن يعلن هؤلاء عن أنفسهم كضامنين لحقوق الناس والراعيين لمصالحهم بخطبهم وهتافاتهم الرنانة، ما إن حصلوا على المناصب السياسية حتى يتخلوا عن كل ما هتفوا وخطبوا لأجله، باحثين عن الوساطة لغيرهم في سلطتهم (الوردي، ١٩٩١: ٣٠٣).

كما وقد ذكر أن مشكلة الازدواج تشتد في المراكز الدينية أكثر من غيرها، ففي المكان الذي يكثر فيه الواعظون والفقهاء يكون الناس أولي وجهين، ويشبهون كثيراً من الناس في أعمالهم، لكنهم يتواعظون ويتفقهون ويتصافعون بالويل والثبور أكثر من غيرهم من الناس الآخرين (الوردي، ١٩٩٥: ٤٤).

وفي خضم كلامه أيضاً عن شخصية الفرد العراقي يذكر الوردي أن الفرد العراقي يفكر

بأشياء لا يقوى على فعلها أو تطبيقها ويدعو إلى أهداف بعيدة المنال، فهو يقول للزملاء: «انهضوا وما إن ينهضوا يجد في نهضتهم مخافة فيقبع في بيته خوفاً من ذلك» (الوردي، ١٩٥١: ٤٤).

ومن جملة ما أشار به إلى الوعّاظ قال: «إن مشكلة الوعّاظ عندنا أنهم يأخذون جانب الحاكم ويحاربون المحكوم، فنجدهم يعترفون بنقائص الطبيعة البشرية حين يستعرضون أعمال الحكّام، فإذا ظلم الحاكم رعيته أو ألقى بها في مهاوي السوء قالوا إنه اجتهد فأخطأ والعصمة لله وحده، أما حين يستعرضون أعمال المحكومين فتراهم يوعدون ويزمجون وينذرونهم بعقاب الله الذي لا مردّ له، وينسبون إليهم سبب كل بلاء ينزل بهم» (الوردي، ١٩٩٥: ١٢).

إن ما يبرز من خلال ذلك أن الوردي مثقفاً حاول نقد ما يجري في مجتمعه من خلال تلبّس الأفراد بالكثير من الصفات التي جاءت بها بيئة ذلك المجتمع، فنقد أصحاب السياسة والسلطة السياسية، فضلاً عن نقده للسلطة الدينية ووعاظها وفقهائها، من خلال كثير من السلوكيات التي كانت تخالف أصول المجتمع الصحيح، لكنه قد هاجم كل هذه الأطراف بطريقة الناقد العلمي غير المباشر بنقده، ففهمت السلطات هذه أنذاك فحوى كل ذلك، وحاولت الحدّ من أفكاره، إذ واجهت هذه الأفكار الكثير من النقد من قِبَل كتّاب في الدين والسياسة وعلوم أخرى، حتى وصل الأمر إلى أن كتب الوردي أزيلت عن كثير من المكتبات في ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم، لمحاولة تهميشه وإسكات صوت أفكاره.

لقد فهمت السلطات السياسية آنذاك أن أفكاره هذه قد تحطّم أسس السلطة وتهيِّج الناس عليهم، فنقده لصفات السياسيين يُعدُّ هجوماً عليهم، وكذلك قد يكون بمثابة إحداث انقلاب على الوضع المجتمعي الذي قد يطال السلطة السياسية في وقتها.

لذلك فالوردي كان ناقداً لا ذعماً للسلطة السياسية والدينية بطريقة غير مباشرة، وإنما كان يغلفها بأسلوب علمي يبعد عنه كل الشبهات، إلا أن آراءه فهمت بأنها فعلاً مضادة لما قامت عليه السلطات آنذاك.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد عمّد الوردي من أنماط المثقفين التنويريين، فقد واجه السلطات بأفكاره وبأسلوب علمي نقدي شيق، رغم مضايقات جهات كثيرة له لإسكات صوت أفكاره في تلك المرحلة.

خاتمة

لقد أضحى المثقف هو مَنْ يتمكن من لعب دور ما في صياغة الرأي وترويجه للمتلقي، ولم تعد الثقافة والمعرفة شرطاً مطلوباً ومفترضاً لـ «المثقفين» فلقد اقتحم من يساهم بالرأي والتعليق فضاءنا السمعي والبصري رغماً عنا، والحق أننا يبدو وكأننا توأمانا في قبول تخلي المثقف عن الدور المنسوب إليه عادة في نشر الوعي والمعرفة، أو المساهمة في خدمة قضية شعبه وقضايا الإنسان، فلقد طغى الدور الوظيفي الدعائي الترويجي على حساب الدور المعرفي الإبداعي، والمثقف متهم اليوم أكثر من أيّ

وقت مضى، بتقديم خطاب تبريري أو تحذيري وهو في أفضل الأحوال تفسيري. إن المثقف العربي اليوم يعيش بين مدِّ الظروف المحيطة به وجَزْر صفات المثقف الواجب انغماسه فيها، فعندما نتحدث عن أزمة قد تكون أزمة مثقف ناتجة من سلبيات ما نسجه له المجتمع أو من سلبيات ذاته المعوقة للمجتمع نفسه، فقد نجدهم حاملين فكر لا يوظفونه لخدمة المجتمع ولا يشكلون دعاءً لنبذ كل ما هو غير سليم، فباتت صورة المثقف ربّما لديهم هي عبارة عن مجرد شخص يتمتع بكم من المعلومات التي يتشدد بها في عدة محافل من دون فائدة، وإنما لأغراض شخصية، ومع ذلك الدور لا يمكن بناء منظومة فكرية أساسية تستطيع أن تؤسس لمجتمع يقوى على التقدم من دون التعرّض لما يشوب عمله □

المراجع

- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (١٩٩٩). **لسان العرب**. ط ٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ١٨ ج.
- بزيغ، شوقي (٢٠٠٦). «أبدية المثقف وراهنية السياسي». **تحولات: العدد ٧**. <<http://www.Tahawolat.com/cms/article.pl>> .
- بشور، معن (٢٠٠٤). «دور المثقف العربي في مواجهة الواقع الراهن». في: **حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي**. عمّان: مؤسسة عبد الحميد شومان.
- بلقرزيز، عبد الإله (١٩٩٨). «المثقف العربي أمام المسألة النقدية». **مجلة الآداب** (بيروت): العددان ٩ - ١٠.
- الجابري، محمد عابد (٢٠٠٠). **المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**. ط ٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حرب، علي (٢٠٠٤). **أوهام النخبة أو نقد المثقف**. ط ٣. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- درّاج، فيصل (٢٠١١). «الثورات العربية وصور المثقف». **المستقبل العربي: السنة ٣٤**، العدد ٣٩٣، تشرين الثاني/نوفمبر.
- زمام، نور الدين (٢٠٠٨). «حول سوسيولوجية المثقف الجزائري». **إضافات: العدد ١**، شتاء.
- سعيد، إدوارد (١٩٩٦). **صور المثقف**. ترجمة غسان غصن. بيروت: دار النهار.
- سليمان، منذر (٢٠٠٦). «أين أشباح المثقفين؟». **مجلة الآداب** (بيروت).
- ضحية، أحمد (٢٠٠٦). «حول المثقف والسلطة في السودان». **الحوار المتمدن**، العدد ١٦٢١، <<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid>> .
- عبد الدائم، عبد الله (١٩٩٥). «المثقف العربي وضغوط المجتمع». في: أحمد صدقي الدجاني [وآخرون]. **المثقف العربي: همومه وعطاؤه**. إعداد أنيس صايغ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

عبد الغني، مصطفى (٢٠٠٤). «طه حسين مثقف له قضية.» الأهرام الديمقراطية
< <http://www.digital.ahram.org.eg/articles-asp?serial=794464&eid=1834> > .

عبد الفضيل، محمود (١٩٩٥). «المثقف العربي: سعيًا وراء الرزق والجاه.» أحمد صدقي
الذجاني [وآخرون]. المثقف العربي: همومه وعطاؤه. إعداد أنيس صايغ. بيروت،
مركز دراسات الوحدة العربية.

العليو، زكي (٢٠٠٥). «المثقف بين المجتمع والسياسة.» الكلمة: السنة ١٢، العدد ٤٩،
< <http://www.Kalema.net/v1/?rpt=6228art> > .

العوامي، فيصل (١٩٩٩). المثقف وقضايا الدين والمجتمع. بيروت: منتدى الكلمة
للدراستات والأبحاث.

فؤاد، عاطف أحمد (١٩٨٠). الحرية والفكر السياسي المصري: دراسة تحليلية في
علم الاجتماع السياسي. القاهرة: دار المعارف.

فضل، صلاح (١٩٩٩). «المثقف والسلطة السياسية الدينية: ملاحظات على هامش الخطاب
الثقافي المصري.» مجلة الآداب: العددان ١ - ٢.

المستقبل العربي (١٩٨١). «المستقبل العربي: صعوبة أن تكون مثقفاً عربياً،» المستقبل
العربية: السنة ٤، العدد ٢٧، أيار/مايو.

النبأ (٢٠٠٦). «عن المثقف والتحديات الراهنة.» النبأ (بغداد): السنة ١٢، العدد ٨٣.

الوردي، علي حسين (٢٠٠٥). دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. قم: منشورات سعيد بن
جبير.

الوردي، علي حسين (١٩٩٥). وحاظ السلاطين. ط ٢. لندن: دار كوفان للنشر.

الوردي، علي حسين (١٩٩١). لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. ط ٢. لندن:
دار كوفان للنشر.

الوردي، علي حسين (١٩٥١). شخصية الفرد العراقي: بحث في نفسية الشعب
العراقي في ضوء علم الاجتماع الحديث. بغداد: مطبعة الرابطة.

Bruce, Steve and Steven Yearley (2006). *The Sage Dictionary of Sociology*. London: Sage
Publications.

Kottak, Cmnrad Phillip (2006). *Cultural Anthropology*. 11th ed. London: McGraw Hill.

Oxford Word Power Dictionary (2006). 2nd ed. New York: Oxford University Press.